مظاهر الوسطيّة في مواقف براغ اللسانية

فـــــوزي حـــــســـــن الـــــشـــــايـــــب

أستاذ، قسم اللغة العربية، كلية الآداب
جامعة اليرموك، الأردن

المجلة العربية للعلوم الإنسانية
47
العدد 119/30

الملخص

" الوسطية " مبدأ مطلوب في كل شيء؛ لأنه يعني الاعتدال والاتزان. والفضيلة أبداً وسط بين طرفين كلاهما مرغوب عنه؛ الإفراط والتفريط. ولمّا كان كل فعل يقتضي رد فعل يقابله، كانت الآراء اللسانية المتطرفة تستدعي بالضرورة ردود فعل متطرفة مماثلة. والآراء المتطرفة غالباً ما تكون مرفوضة؛ نظراً إلى أنها تنمّ عن استبداد بالرأي، واحتكار للحقيقة، ومصادرة لآراء الآخرين. والمتأمل لمجمل مواقف مدرسة براغ اللسانية يجد أنها قد اتسمت بالوسطية التوفيقية بين المواقف اللسانية المتطرفة، والمتضادة، وقد تجلى ذلك بوضوح في وقوفهم وسطاً بين التاريخية الصارمة لمدرسة النحويين الجدد، والوصفية المطلقة لأبي اللسانيات الحديثة سوسير، من جهة، والوقوف وسطاً كذلك بين المدخل السلوكي المادي المتطرف لبلومفيلد، والمدخل التجريدي الرياضي لهلمسليف، من الجهة الأخرى. هذا إلى جانب اتخاذهم موقفاً وسطاً أيضاً بين من اهتمّ بوضع مناهج فقط، وأولئك الذّين اهتموا بوضع نظريات فقط، والوقوف وسطاً كذلك بين مؤيدي مفهوم الفونيم من أنصار الفونولوجيا التقليدية، وبين معارضيه من أتباع مدرسة لندن على وجه الخصوص. وهذا كله يعطي الانطباع بمرونة لسانية محمودة تتمتع بها مدرسة براغ في تعاملها مع القضايا والمسائل اللغوية؛ بحيث جعلت منها موئلاً التقى فيه ما تفرّق لدى الباحثين الآخرين من مواقف وآراء، فكانت من ثمّ رمزاً لتعايش الآراء وتقاربها بدل تناقضها وتعارضها.

تمهيد

مِن الحقائق المقرّرة الّتي لا يحسن النزاع فيها أنّ العلوم في تطوّرها تسير بطريقة متّصليّة، وتراكميّة، فليس ثمّة ظاهرة مِن الظواهر الإنسانيّة أو الطبيعيّة يمكن أنْ تكون طفرة في تاريخ الجنس البشري، فاللسانيات في أيّامنا هذه هي ثمرة ماضيها، وغرس مستقبلها.

ونقطة الانطلاق الأساسيّة في تطوّر البحث العلمي هي الصراع الفكري بين الأجيال[1]. وهناك عامل آخر لا يقلّ أهميّة عنه هو تطوّر حاجات المجتمع، وتغيّر مصالحه واهتماماته[2]، وهو ما يُسهم في إحداث تغييرات نوعيّة في التوجّهات الفكرية لدى الأفراد.

وظهور أيّ نظريّة، أو مدرسة علميّة جديدة لا يتمّ مِن خلال رفض النموذج القديم، وإحلال آخر جديد محلّه فحسب، وإنّما يتمّ أيضاً مِن خلال تطوّر جدليّ مستمرّ ومتصاعد يُجسّد وحدة الاستمراريّة والانقطاع الفكري، ولهذا السبب نجد أنّه - على الرغم من كلّ ثورة علميّة - يُحتفظ عادة باستمراريّة معيّنة في تطوّر العلم، فهناك دائماً وأبداً جدليّة الاستمرار، وعدم الاستمرار في الأفكار والتّوجّهات.

وتطوّر المفاهيم والأفكار اللسانيّة، وتجدّدها يرسّخ مبدأ النسبيّة المعرفيّة الّتي هي مظهر قوّة لا ضعف، ودليل صحّة لا اعتلال؛ نظراً إلى أنّها تضع المبادئ الأساسيّة للسانيّات موضع نظر ومساءلة لا تنتهي؛ الأمر الّذي أهّل اللسانيّات لأنْ تُصنّف ضمن أكثر العلوم الإنسانيّة خِصباً وثراءً.

ومدرسة براغ، شأنها شأن أيّ مدرسة أُخرى إنْ هي إلّا مثل حيّ على الصراع الفكري بين الأجيال، وانعكاس مباشر لحاجات مجتمعيّة متغيّرة.

مدرسة براغ: النشأة والأعلام

مِن أهمّ المدارس اللسانيّة الّتي ظهرت في الثلث الأوّل مِن القرن العشرين المنصرم، مستندة بقوّة إلى النظريّة اللسانيّة المطوّرة على يد أبي اللسانيّات الحديثة؛ سوسير، والّتي كان لها أثر بالغ في تطوّر اللسانيّات على المستوى العالمي "مدرسة

براغ". وهي في حقيقتها مجموعة من الباحثين الأوروبيين الذين التفوا حول عالِم اللسانيات التشيكي فيلم ماثيسيوس Vilem Mathesius (1882-1945م)، الّذي يعد المؤسس الحقيقي لهذه المدرسة[3]، التي شكلت عام 1926م من ماثيسيوس وزميله يوسف زوباتي Josef Zubaty، وتلاميذهما: بهوسلاف هافرانك Havranek، وبدرش ترنكا Trinka، وجان. بوكاروفسكي الذي كان منظراً في المجال الأدبي. وقد انضم إليهم المهاجرون الروس الثلاثة: نيكولاي تروبتسكوي N. Trubetzkoy (1890-1938م)، ورومان جاكوبسون R. Jakobson (1896-1982م) وسيرجي كارشفسكي S. Karcevskij (1884-1955م)، وسرعان ما التحق بهم جيل من الشباب الباحثين أمثال: ي. فاشيك J. Vachek، وف. سكاليتشكا V. Skalicha، و أ. ف. إيزاتشينكو A V. Isacenko[4]. وقد شاركهم في أفكارهم الألماني كارل بوهلر Karl Buhler(1879-1963م)، والفرنسيان: أندريه مارتينه (1908- 1999م)، وإميل بنفنيست (1902-1972م)[5]. وهؤلاء هم أبرز الأعضاء.

وقد بدأ رواد هذه المدرسة اجتماعاتهم الأولى في مكتب ماثيسيوس منذ عام 1925م[6]، وكان السبب المباشر لذلك هو زيارة هنريك بيكر Henrik Becker الذي ألقى محاضرة حول موضوع "**الفكر اللغوي الأوروبي**"، ودارت حولها مناقشة بين الحاضرين، من بينهم: فاشيك وجاكوبسون وترنكا وهافرانك[7].

ولقد قُدم الإعلان الرسمي لمدرسة براغ إلى المؤتمر الدولي الأول للسانيين الذي عقد عام 1928م في مدينة لاهاي، ولكن على صورة أشخاص فُرادى، وتمّ الاعتراف بهم بوصفهم مدرسة؛ أي مجموعة ذات تصوّرات لسانيّة مشتركة، وموحّدة نسبيّاً في مؤتمر الدراسات السلافيّة الأوّل الّذي عُقد في براغ عام 1929م، وقد تعزّزت مكانتهم وثبتت هويّتهم اللسانيّة في المؤتمر الفونولوجي الأوّل الّذي عُقد في براغ أيضاً عام 1931م.[8]. وبلغت هذه المدرسة أوجها، وقمة عطائها في الفترة ما بين 1929-1939م[9]، وهي الفترة المعروفة بالفترة الكلاسيكية؛ أي العصر الذهبي لمدرسة براغ. وقد ظهر أول برنامج لها في الموضوعات التي نشرها ترنكا وغيره سنة 1929م وهو العام الذي

أصدروا فيه مجلتهم: " **أعمال حلقة براغ** " **اللسانية**، وفيها حدّدوا مفهومهم للغة بأنها " **نظام لوسائل التعبير المناسبة لهدف ما** "[10].

وتعد مدرسة براغ أهم المدارس اللسانية التي ظهرت في أوروبا في النصف الأول من القرن العشرين؛ ففيها شقّ تطور علم اللغة البنيوي طريقه، إذ كانت هذه المدرسة هي المسؤولة - بشكل مباشر - عن الأخذ بيد النزعة البنيوية ودفعها قدماً إلى الأمام، وإخراجها إلى حيّز الوجود الفعلي عام 1928م، وذلك في المؤتمر الدولي الأول للسانيات[11]. وقد كان لهذه المدرسة أصداء واسعة وقوية في عدد من الأقطار الأوروبية، بل في أمريكا أيضاً. ولا أدلّ على ذلك من قيام مجموعة مشهورة من اللغويين الأمريكيين بتسمية نفسها حلقة "Circle" تيمناً باسم حلقة براغ[12]. وكثير من الباحثين الأوروبيين - على رغم كونهم ليسوا أعضاء في مدرسة براغ - قد استمدوا إلهامهم وأفكارهم من عمل أقطاب هذه المدرسة.

ويعود الفضل الأكبر في إبراز شأن هذه المدرسة والتعريف بها، وشهرتها في العالم إلى جهود العالمين الروسيين: نيكولاي تروبتسكوي، وورومان جاكوبسون من جهة[13]، وإلى ما كانت تتمتع به مدينة براغ نفسها "**قلب أوروبا**" من تقاليد راسخة في الفكر اللساني من جهة أخرى[14].

ولقد وجدت هذه المدرسة في جو لساني، ومناخ علمي مشحونين بأحدث التطورات اللسانية: أفكار سوسير، وبودوان دي. كورتيني، ومدرسة فورتوناتوف السلافية التي أدرك مؤسسها: فيليب فيدروفيتش فروتوناتوف Filip Fedorovic Fortunatov (1848-1914م) - الحاجة إلى التمييز بين الآني والزماني[15]. وإلى جانب حداثة المذاهب اللسانية، كانت الساحة تعاني حدّة واضحة في الطروحات والتوجهات اللسانية، وقد أفادت مدرسة براغ من هذا كله، وعرفت كيف تستثمره. وخرجت من هذا المخاض اللساني بمواقف اتسمت بالوسطية والاعتدال، وفيما يأتي بيان ذلك.

أولاً - التوفيق بين الاتجاهين: الآني والزماني

قامت مدرسة براغ في الأساس على أفكار سوسير الذي طبقت شهرته الآفاق، وخاصة بعد الحرب العالمية الثانية، حتى لكأن الهواء كان مفعماً بأفكاره، ولذا فقد تابعت سوسير في تركيزها على مفهوم النسق أو النظام، ولكنها أضافت إليه مفهوم الوظيفة؛ بحيث أصبح الملمح الأكثر تمييزاً لهذه المدرسة هو الجمع بين البنيوية والوظيفية[16]. . وذلك بالنظر إلى اللغة عن طريق الوظيفة، فمن معتقدات هذه المدرسة الراسخة أن بنية اللغات مقررة في معظمها من قبل وظائفها المميزة. وعليه، فإن كلاً من البنية الفونولوجية والنحوية والدلالية للغة تقررها وتحددها الوظائف التي تؤديها في المجتمعات التي تعمل فيها[17]. وفي الحقيقة كان الجناح الروسي لهذه المدرسة هو المسؤول عن إدخال الجانب البنيويّ بقوّة، في حين كان الجناح التشيكي - بالتعاون مع علماء نفس الجشتالت - هو المسؤول عن إدخال الجانب الوظيفي.[18]

ولكنْ في الوقت الذي تسلّم فيه براغ بدينها للبنيوية السوسيرية فإنّها قد اختطت لنفسها أسلوباً خاصاً، خالفت فيه تعاليم أستاذها وملهمها سوسير في فصله الحاد بين البعدين: الآني والزماني في الدراسة اللسانية، وتقديمه الأول على الثاني من حيث الأهمية والاعتبار، وقد كان هذا الموقف من سوسير يمثل ردّ فعل قوياً وحاداً لموقف النحاة الجدد الذين سطع نجمهم في الربع الأخير من القرن التاسع عشر. الذين تبنّوا المنهج التاريخي طريقاً أوحد للدراسة العلمية للغة، وقد استطاعوا فرض وجهة نظرهم على الساحة اللسانية؛ بحيث إنه ما إن شارف القرن التاسع عشر على الانتهاء حتى انعقد إجماع اللغويين على التسليم بمقولة هيرمان بول Hermann Paul (1846-1921م) - المنظر الرئيسي لمدرسة النحاة الجدد - : "إنّ الدراسة العلمية للغة هي تاريخية بالضرورة"[19]. وقد بيّن هرمان بول ذلك بوضوح أكثر في قوله: "لقد ادُّعي أن التحليل التاريخي للغة ليس هو التحليل العلمي الوحيد الممكن، وهذا يجب رفضه؛ فما يعتقده بعضهم من أنه من الممكن أن يكون هناك تحليل غير تاريخي وعلمي أيضاً لا يزيد في الواقع على كونه تحليلاً تاريخياً ناقصاً، ونقصه ناجم - جزئياً - عن قصور

المحلّل، وجزئياً بسبب نقص المعطيات"[20]. وقد أكّد هذا المبدأ مرّة أخرى بقوله: "بقدر ما يذهب المرء وراء الحكم المجرد للحقائق القائمة بذاتها، وبقدر ما يحاول أن يمسك بالعلاقات الداخلية ليفهم الظواهر يدخل المرء في مجال التاريخ رغم أنّه ربّما لا يكون واعياً بذلك"[21].

وفي الحقيقة إنَّ النزعة التطورية التي هيمنت على كل مناحي التفكير الإنساني في القرن التاسع عشر تحت تأثير نظرية دارون هي التي أملت على اللغويين في تلك الفترة اعتبار التاريخ بمنزلة المنظور الأساس للغة، واصطناع التطور أو التعاقب مبدأً أول للتفسير مع الحرص على تجزئة اللغة إلى عناصر منعزلة من أجل البحث عن قوانين التطور الخاصة بكل منها على حدة[22].

وفي هذا الجو المشحون بالتوجه التاريخي العارم جاء الردّ حاداً ومتطرفاً أيضاً ليكون على مستوى الهيمنة القوية التي كان يمارسها المنهج التاريخي، وذلك على يد أحد تلامذة النحاة الجدد النجباء، بل أنجبهم على الإطلاق، ألا وهو اللغوي السويسري فردينان دي سوسير (1857-1913م) الذي تلقى تدريبه اللساني على يد أعلام النحاة الجدد: كارل بروجمان Karl Brugmann (1849-1919م) وهرمان استهوف Hermann Osthoff (1847-1909م) وأوجست ليسكن August Leskien (1840-1916م)، وذلك في جامعة ليبزج معقل النحاة الجدد، حيث مكث فيها ما يزيد على أربعة أعوام، تخلّلتها فترة فاصلة (ثمانية عشر شهراً) قضاها في جامعة برلين[23].

وقد أعجب سوسير كثيراً بأساتذته ووصفهم بأنّهم أصحاب الفضل الأكبر في إضفاء صفة الانضباط التام على المنهج التاريخي المقارن قائلاً: "وقد كان لجميع هؤلاء الفضل في إحلالهم نتائج منهج المقارنة كلها محلّها من المنظور التاريخي، ومن ثم في ربط حلقات سلسلة الأحداث اللغوية حسب نسقها الطبيعي، وبفضلهم لم يعد الناس يعدون اللغة جهازاً يتطور من تلقاء نفسه. وصاروا يرون فيها نتاجاً من نتاجات الفكر الجماعي للمجموعات اللغوية"[24]، وزاد على ذلك بأنْ جعلهم روّاداً ومدشنين لمرحلة لسانية جديدة في اللسانيات

وذلك حيث يقول: "وإنّما بدأ الناس يتساءلون عن الظروف والملابسات التي تتعلق بحياة اللغة حوالي سنة 1870م"[25].

ولكنْ على الرغم من إشادته الكبيرة هذه بهم، فإنّه قد أخذ على أتباع المنهجين: التاريخي والمقارن إصرارهم على التمسك بالمنهج التاريخي وحده، قال بهذا الخصوص: "إنَّ الألسنية الحديثة منذ وجدت قد غرق أصحابها غرقاً في بحر الدراسة الزمانية فحسب"[26]. ودعا إلى ضرورة التمييز في الدراسة اللغوية بين ما سماه:

1 - محور المتواجدات (أ - ب) المتعلق بالأمور الآنية التي لا دخل للزمن فيها البتّة.

2 - محور المتعاقبات (ج - د) الذي لا نستطيع التعامل فيه إلا مع شيء واحد فقط، ولكننا نجد فيه جميع الأمور المتعلقة بالمحور الأول مع ما يطرأ عليها من تغيرات، كما هو موضح في الرسم الآتي[27]:

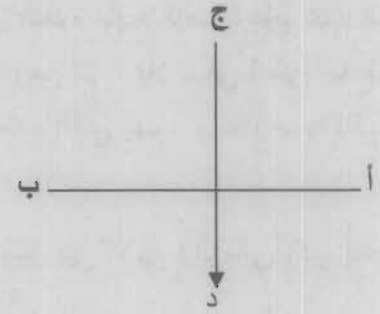

ومِن ثم فقد ميّز بين اللسانيات السنكرونية Synchronic Linguistics التي تهتم بالعلاقات المنطقية والنفسية الّتي تربط بين عناصر متزامنة مكونة لنظام قائم كما يدركها وعي جماعي واحد، ويكون التساؤل هنا بأيّ محتوى، وعناصر اللغة، وبحسب أيّ قواعد تعمل اللغة في وقت بعينه؟ واللسانيات الدياكرونية Diachronic Linguistics التي تهتم بالعلاقات الّتي تربط بين عناصر متتالية لا يدركها وعي جماعي واحد[28]. ويمكن أنْ تكون نقطة الانطلاق مرحلة لغوية

قديمة ويكون التساؤل: كيف تطورت اللغة من مراحل لغوية مبكرة حتى الوقت الحاضر؟ وبعبارة أخرى فإن كل ما يتعلق بالجانب الثابت من اللغة هو آني، وكل ما له مساس بالتطورات زماني. وقد عد سوسير هذا التقابل بين الآني والزماني ضرورة عملية، وتقابلاً مطلقاً لا محيد عنه[29]. وقد بيّن أنَّ محور المتعاقبات (ج - د) في الرسم أعلاه، يشتمل في الوقت نفسه على التطورات التي تصيب عناصر مِن اللغة، وعلى الحالة الآنية التي تكون عليها اللغة في نقطة ما من الزمن؛ ذلك أنَّ محور المتعاقبات في حقيقته ما هو إلا حالات آنية متتابعة. ومِن هنا كان على الدارس التاريخي أنْ يدرك أنَّ منهجه يضرب ويسهم في ميدانين اثنين معاً؛ ميدان الحالات الثابتة للغة، وميدان التطورات المتعاقبة، ونقطة الضعف عند هؤلاء هي أنهم لم يتوصّلوا إلى التمييز في دراستهم بين ما هو آني وما هو تعاقبي، وبذلك أقاموا دراستهم على أرضية لم يحكموا ضبط حدودها، فكان أنْ جاء تصورهم للغة تصوراً هجيناً فيه خلط وتردّد[30]. وقد عاب عليهم خلطهم هذا قائلاً: "وفعلاً فقد ظلّوا يخلطون في الألسنية بين هذين الصعيدين طيلة عشرات السنين، وغاب عنهم أنَّ منهجهم هذا لا خير فيه"[31]. فالمنهج التاريخي الذي اتبعوه منهج قاصر نتيجة عدم القدرة على التمييز بين ما هو آني وما هو زماني؛ ومِن ثَمَّ "فلا ينبغي (على حد قول سوسير) أنْ نعتقد أنَّ الواقع التاريخي هو وحده الذي يهم، وأنّه وحده كافٍ بمفرده لتكوين لغة مِن اللغات"[32].

وقد عُدّ هذا التمييز بين الآني والزماني أكبر إنجاز لسوسير، بل واسطة العقد في كامل تفكيره[33].

وفي الواقع إنَّ الذي دفع سوسير إلى هذا التمييز هو إيمانه الراسخ بأنَّ اللغة، أيَّ لغة، إنّما هي نظام متكامل من العلامات، قال بهذا الخصوص: "وإذا تحتّم هذا التمييز على دارس أكثر من تحتمه على غيره فإنما يتحتم على اللساني؛ ذلك أنَّ اللغة نظام من القيم المحض التي لا يحدد قيمتها شيء باستثناء الوضع الذي تكون عليه عناصر ذلك النظام في زمن معين"[34]. وقد استبعد إمكانة تطبيق مفهوم النظام كلية في الدراسة التاريخية قائلاً: "لمّا كانت التغيرات

لا تلحق البتة النظام برمّته بل تلحق هذا العنصر أو ذاك مِن عناصره فقط، فإنّه لا يمكن دراسة هذه التغييرات إلا خارج هذا النظام"[35].

وإذا كان سوسير قد ميّز بين الآني والزماني فإنّه قد انحاز إلى جانب الآني، فقدمه مِن ثَمّ على الزماني، وأعطاه الأولوية وجُلّ الاهتمام، قائلاً: "فمن البديهي في هذه النقطة أنَّ المظهر الآني يطغى على المظهر الزماني؛ إذْ يمثل عند جمهور المتكلمين الواقع اللغوي الحقيقي الوحيد"[36]، فتعاقب الظواهر اللغوية لا وجود له بالنسبة إلى المتكلم؛ "ولذلك يجب على الألسني.... أنْ يتجاهل الزمانية؛ لأنه لا يستطيع أنْ يدرك ما في أذهان المتكلمين إلا إذا ألغى الماضي إلغاء؛ وذلك أنّه ليس من شأن تدخل التاريخ والزمن إلا أنْ ينحرفا بأحكامه عن الصواب"[37].

وقد آمنت مدرسة براغ بضرورة أنْ يحظى الجانب الآني بالاهتمام والاعتبار لِما له مِن تأثير في الواقع اللغوي الفعلي، ولكنْ دون إهمال للجانب التاريخي؛ ذلك أنَّ تاريخ اللغة إنّما يكتسب معناه الحقيقي إذا ما نظر إلى تطوّر اللغة على أنه تطور لمجمل النظام[38]، ومعنى ذلك أنّ تاريخ اللغة لا يُعنى - على وجه الحصر - بوصف خصائص لغوية معينة منفصل بعضها عن بعض؛ نظراً إلى الترابط الوثيق بين البعدين: الآني والزماني؛ فالآنية ما هي إلا قيمة موقعية في داخل تواصل زماني تعاقبي، والزمانية أو التعاقبية هي مجموعة من الآنيات أو التزامنيات، ولذلك يجب أنْ يكون النظام ماثلاً دائماً في كلّ وصف تعاقبي، وكل وصف تعاقبي في المقابل يجب أنْ يكون ماثلاً أيضاً في كلّ وصف آني[39] وما ذلك إلا لأنَّ نظام اللغة هو في كلّ حين مؤسّسة حالية، ونتاج من نتاجات الماضي[40]، وكما قال كوشيرو Coserrau: "تعمل اللغة سنكرونياً، وهي مبنية دياكرونياً"[41]، وإنّه لمن الصعب الفصل بين البنية والوظيفة. ثُمّ إنّ رفض الاعتراف بالبعد الزماني سيؤدّي إلى استبعاد أيّ إمكانة لتفسير بعض الظواهر اللغويّة، مثل ظاهرة الغريب من الألفاظ.[42].

وعليه، فإنّ الترابط بين هذين البعدين هو من القوة بحيث يجعل التقابل بينهما لا يتطابق مع الواقع؛ إذ الإدراك الساكن (الحالة الثابتة للغة) - على حدّ

قول جاكوبسون - هو محض خيال[43]؛ نظراً إلى أنّ الساكن يحوي عدّة عناصر ديناميكية، وعليه، فإنّ مفاهيم نظام ما وتغيراته أو الآنية والزمانية أو التعايش والتحوير ليست منسجمة فقط، وإنّما هي مترابطة على نحو وثيق لا يقبل الانفصال[44]، ومِن هنا فقد نادى كثير من العلماء بضرورة التغاضي عن هذا التمييز، أو تجاوزه على أقلّ تقدير لصالح وجهة نظر كلّيّة "global" للّغة[45]، وبناءً عليه ذهب جاكوبسون إلى أنّه " يجب أن يؤخذ مفهوم اللغة كنظام وظيفي بعين الاعتبار أيضاً في دراسة الحالات اللغوية الماضية، إذا كانت غايتها إعادة بناء هذه الحالات أو ملاحظة تطورها. ولا يمكن أنْ نقيم حدوداً لا يمكن تجاوزها بين الطرائق الوصفية والطرائق التاريخية. . . وليس مِن المنطقي أن نعتبر التغيرات اللغوية كوارث مدمرة تحدث بمحض الصدفة بالنسبة إلى النظام؛ فالتغييرات اللغويّة تستهدف غالباً النظام، واستقراره، وإعادة بنائه[46] " .

ومن وجهة النظر المجهرية الضيقة يبدو أنّه من المستحيل - في الواقع - إمكانة رسم حدّ حاسم بين التغير الديكروني والتنوع السنكروني[47]؛ فالدراسة التاريخية لا يمكن أنْ تهمل فكرتي النظام والوظيفة، كما أنّ الدراسة الوصفية لا يمكن أنْ تلغي فكرة التطور؛ إذْ لا يمكن الفصل بين المنهجين: التاريخي والوصفي؛ وذلك لأنّ التغير عبر الزمان والمكان سمة طبيعيّة في داخل اللغة، أيّ لغة. وإذا كان بالإمكان دراسة هذه التغيرات دراسة وصفية تقتصر على التعريف بأشكال التغيرات الحادثة فإنه لا يمكن عزل هذه الأشكال عن سياق الأحداث التاريخية التي تصاحب وجودها[48]، ولذا فإنّه يصعب كثيراً الفصل بين هذين الاتجاهين في مجال التطبيق العملي؛ لأن كل المصطلحات التي تستخدم في الدراسة الوصفية قابلة مِن الناحية العملية لأنّ تستخدم أيضاً مع الدراسة التاريخية، فمدلولات مصطلحات مثل: اللغة المعيارية Standard language واللهجة Dialect واللغة الخاصة Jargon والعامية Slang. . . كلها تدخل في ميدان الدراستين: الوصفية والتاريخية[49]. وعلى كلٍّ، فقد جسّد جاكوبسون هذا التلاحم والتلازم بين البعدين: الآني والزماني بإصداره كتاب "مبادئ الفونولوجيا التاريخية" عام 1931م[50]، ساداً بذلك الهوة التي كانت تفصل بين

سوسير والنحويين الجدد. هذا، وقد جاء في المقترح الثاني والعشرين لمؤتمر لاهاي اللساني المنعقد عام 1928م: "إنّ التناقض بين الفونولوجيا السنكرونية والفوناتك الدياكرونية يمكن التخلص منه في اللحظة التي تعدّ فيها التغيرات الصوتية وظيفية في النظام الفونولوجي الذي تؤثّر فيه"(51).

بقي أنْ نقول إنَّ هذا التمييز الحاد الذي أقامه سوسير بين الآني والزماني يبدو الآن أنّه أضعف نقطة في تعاليمه(52)؛ إذ الحقيقة اللغوية في ذاتها لا توصف بأنّها سنكرونية ولا دياكرونية؛ ذلك أنّ السنكرونية والدياكرونية، كلّ واحدة منهما ما هي إلّا طريقة، أو منهج للدراسة فقط، وليس أيّ منهما أولى بالاتباع من الآخر، قال ف. أ. في غنتسيت: "إنّ قضية التزامن والتطور التاريخي تعتبر في الواقع طرائق عمل وليست قضية طبيعة وجوهر اللغة"(53). ولعل أقوى هجوم شُن على هذه الثنائية، وهذا الفصل الحاد هو ذاك الذي شنّه فون فارتبيرج V. Wartburg الذي جاء فيه: "اللسانيات في المستقبل يجب أنْ تهدف إلى الوصول إلى المرحلة التي ستكون عندها وجهتا النظر متحدتين عضوياً بحيث يمكن أنْ يرى بوضوح كيف يمارس النظام والحركة تأثيراً تبادلياً من أحدهما للآخر"(54).

ثانياً - التوفيق بين المادي والتجريدي

على نحو ما قامت به مدرسة براغ من ردم للهوة بين النحويين الجدد وسوسير. عمدت أيضاً إلى تجسير الهوة بين توجّهين لغويين على طرفي نقيض، هما: السلوكية المادية بزعامة بلومفيلد، والتجريدية المنطقية بزعامة هلمسليف.

أما بلومفيلد Bloomfield (1887-1949م) فهو أبو البنيوية الأمريكية، والممثل الرئيسي للسانيات الوصفية فيها، وقد قُدّر له أنْ يؤثّر في جيل كامل من اللغويين الأمريكيين، وأنْ يطبع بطابعه فترة امتدت لثلاثة عقود متتالية، ابتداءً من عام 1933م، وهو العام الذي صدر فيه كتابه الشهير "اللغة" Language الذي عدّ لعظم تأثيره وأهميته "إنجيل اللسانيات الأمريكية"(55)،

وانتهاء بعام 1957م وهو العام الذي شهد ظهور النحو التحويلي على يد تشومسكي N. Chomsky (1928 - ...). وقد عُرفت هذه الفترة بعهد بلومفيلد أو الفترة البلومفيلدية[56]. هذا، ويتفق معظم البنيويين في النصف الثاني من القرن العشرين مع برنارد بلوخ Birnard Bloch (1907-1965م) تلميذ بلومفيلد وصديقه، على أنّ إسهام بلومفيلد العظيم في اللسانيات هو الذي جعل منها علماً[57]؛ فقد أصبحت فرضياته أقرب ما تكون إلى ميثاق لعلم اللغة الوصفي؛ بحيث جعلت منه مرشداً للمرحلة الوصفية في البنيوية الأمريكية[58]، وأنّ كلّ الباحثين - على حد قول برنارد بلوخ - قد صعِدوا على أكتافه[59]. فمنذ عام 1940م حتّى نهاية القرن العشرين شدّ بلومفيلد بأفكاره أنظار اللغويين إليه، وشغلهم بها بحيث يمكن معه القول إن الجانب الأعظم من النظرية والممارسة اللغوية لا يخرج عن كونه إمّا استمراراً لتعاليمه، وإما ردّ فعل ضدّها في اتجاهات مختلفة[60].

لقد اتّبع بلومفيلد في معالجته النظرية لأسس اللغة واللسانيات طريقاً متعرجاً؛ ابتدأ ذهنياً عقلياً وانتهى سلوكياً مادياً، فقد بدأ مسيرته اللسانية لغوياً ذهنياً تقليدياً، حتى لقد كان أكثر تمسكاً ووفاءً للنحو التقليدي من معاصره وزميله إدوارد سابير Edward Sapir (1884-1930م)[61]. يؤكد ذلك التعهد الذي قطعه على نفسه في كتابه الذي أصدره عام 1914م بعنوان "مدخل إلى دراسة اللّغة: Introduction to the study of language " بالالتزام والتقيد بالمنهج الذهني لسيكلوجيا اللغة الّذي تبنّاه فندت Whilhelm Wundt (1832-1920م)[62].

غير أنّ الأمور لم تستمرّ معه على هذا النحو، فقد جرت الرياح على غير ما تودّ وتشتهي سفن النزعة الذهنية، وقد تسبب ذلك في حدوث انقلابٍ كلّي في تفكيره اللساني بحيث تحول معه مائة وثمانين درجة؛ مِن ذهني عقلي إلى مادي لا عقلي. وظل طيلة حياته عدواً لدوداً للنزعة العقلية، وحامل لواء الثورة على المذهب الذهني في اللسانيات[63].

وبطبيعة الحال لم يحدث هذا الانقلاب فجأة بين عشية وضحاها، فقد مهّدت له الطريق خطوتان مهمتان: إحداهما أوروبية. والأخرى أمريكية، أمّا

الأوروبية فهي سفره إلى ألمانيا قبيل الحرب العالمية الأولى، (1913-1914م) حيث أقام في لايبزيج وجوتنجن - معقل الدراسات التاريخية - مدة عامين بوصفه طالب دكتوراه، تلمذ فيهما، وعمل تحت إشراف أعظم رموز الدراسات التاريخية من النحاة الجدد آنذاك، أمثال: بروجمان وليسكن[64]، اللذين غرسا في نفسه حبّ المنهج الوضعي المادي الصارم. وأمّا الأمريكية - وهي أهمّ من الأولى - فهي تأثره بالمنهج السلوكي في علم النفس على يد صديقه ألبرت بول وايس Albert Paul Weiss [65] (1879-1931م). وعليه، فالنحاة الجدد من جهة، وعلم النفس السلوكي من الجهة الأخرى، كانا الأساس المادّي المتين الذي شكّل مفاهيمه ونظريته اللغوية.

وباسم الموضوعية العلمية، ورغبة منه في جعل اللسانيات علماً على قدم المساواة مع الفيزياء والكيمياء تبنى بلومفيلد السلوكية الميكانيكية منهجاً لدراسة اللغة وأخذ يبتعد مِن ثَمّ عن المنهج الذهني شيئاً فشيئاً إلى أنْ تمّت القطيعة النهائية بينه وبين هذا المذهب عام 1926م، إثر مقال له بعنوان "مجموعة مسلمات لعلم اللغة" "A Set of Postulates of the Science of language" الذي ضمّنه القاعدة التي تنص على أن المعنى يتوقف على ملامح المثير ← ردّ الفعل، القابلة للملاحظة في المنطوقات[66].

والمدخل السلوكي في حقيقته نظام وضعي يعد اللغة سلوكاً مثلها مثل أنواع السلوك الأخرى، هي نتيجة طبيعية للأفعال وردود الأفعال، قال بلومفيلد بهذا الخصوص: "وأفعال الإنسان (ومن ضمنها اللغة) من وجهة النظر المادية هي جزء من سلاسل السبب والنتيجة تماماً مثل تلك التي نلحظها في دراسة الفيزياء والكيمياء"[67]. فاللغة من هذا المنظور أشبه شيء بجسر يربط بين إثارة المتكلم وردّ فعل السامع.

وبوصفه مادياً صرفاً ركزّ بلومفيلد على التحليل الشكلي. والأشكال اللغوية موضوع الوصف اللغوي عنده تنحصر في النشاط الكلامي؛ أي في الظواهر السمعية الفيزيائية، أي في الدال وحده، واطرح جانباً كل ما هو ذهني أو مفهومي، ومن هنا كان إنكاره على سوسير تقسيماته الثنائية، مثل: اللغة/

الكلام، والدالّ/ المدلول. . . ووصفها بأنها نظريات عقلية مسرفة وبالية[68]، ومن ثَم فإن عبارات مثل: الذهن، والعقل، والخيال، والعواطف. . . قد أصبحت في قاموس بلومفيلد من المحظورات اللغوية: Taboo [69]. بل لقد ذهب إلى أبعد مِن ذلك حين عدّ التصورات العقلية والمشاعر والأحاسيس مجرّد تعبيرات شعبية عن أشياء مادية، يقول في هذا المعنى: " إنّ أنصار السيكولوجيا العقلية يعتقدون أنّ بإمكانهم تفادي صعوبة تحديد المعاني؛ وذلك لأنّهم يعتقدون أنّه يوجد لدى المتكلم قبل نطق شكل لغوي ما عملية غير مادية: فكر، مفهوم، تصور، شعور، إرادة أو ما شابه ذلك. . . والذي يتبع المذهب الآلي لا يقبل بهذا الحل؛ لأنّه يعتقد أنّ التصورات العقلية والمشاعر وما شابه ذلك هي مجرّد تعبيرات شعبية عن حركات مادّيّة مختلفة "[70].

وباختصار شديد لقد نظر بلومفيلد إلى اللغة نظرة مادية صرفة؛ لأنّ منهجه السلوكي الآلي لا يسمح بالتعامل مع أي شيء لا يمكن ملاحظته، أو قياسه مادياً.

وفي مقابل بلومفيلد بسلوكيته وماديته المفرطة يقف لويس هلمسليف Louis Hjelmslev (1889-1965م). بجلوسيماتيته " Glossematics "[71]، وتجريديته المطلقة.

ومثلما انبثقت مفاهيم بلومفيلد اللسانية مِن مصدرين أساسيين، هما: النحاة الجدد، وعلم النفس السلوكي، كذلك استقى هلمسليف مفاهيمه المنطقية التجريدية للغة مِن مصدرين أساسيين أيضاً، هما: أفكار سوسير وبنيويته التي كان لها أثر كبير في توجه هلمسليف اللساني، بحيث لم تُصِرّ مدرسة على الانتماء بجذورها إلى مذهب سوسير كما فعلت الجلوسيماتية؛ الأمر الذي جعل الكثيرين غالباً ما يشيرون إلى أصحاب هذه النظرية باسم: السوسيريين الجدد: " New Saussurianers "[72]، ويشيرون إلى النظرية نفسها باسم: السوسيرية المحدثة: " New saussurianism "[73]. وقد ذكر هلمسليف نفسه أنّه قد تلقّى رسالة مِن شارل باللي أقرّ له فيها بأنّه الوحيد الّذي فهم سوسير حقّ الفهم[74]. والمصدر الآخر الذي استقى منه هلمسليف أفكاره كان النظرية المنطقية للغة الّتي

طوّرها كلّ من وايتهيلد Whitheald، وبرتراند راسل B. Russel، ورودلف كارناب R. Carnap1891 (–1970)، وغيرهم. وقد كانت أعمال كارناب بشكل خاص ذات نفوذ قوي على هلمسليف ونظريته، ولا غرو في ذلك، فكارناب هو الذي أحكم استخدام المنهج الرمزي في دراسة النحو، وإليه وإلى زملائه في حلقة فيينا للمناطقة "Vienna Circle Logicians" يرجع الفضل الأكبر في تأسيس المقاربة المنطقية للظواهر اللسانية(75). ويشارك هؤلاء المناطقة سوسير في النظر إلى اللغة على أنها حقيقة علاقية، وشكلية محضة(76).

ومُنذ البداية نذر هلمسليف نفسه مِن أجل وضع نحو منطقي يكفل معالجة علمية للغة يمكن أنْ تكون في أعلى درجات الدقة والوضوح والعلمية وشبه الجبرية(77). ويكاد يطبق الجميع على أنّ هلمسليف "كان أول لساني يرى ويؤكد أنّه سيكون مِن أعظم مهمات اللساني في المستقبل إيجاد لغة عليا "Meta Language" (78) تكون وسيلة منطقية للتعريف العلمي" (79).

ولتمهيد الطريق أمام مدخله اللساني الجديد، بدأ هلمسليف بكشف عيوب المداخل اللسانية التقليدية السائدة، وشنّ عليها هجوماً شديداً متهماً إياها بالتعالي في بحوثها على اللغة؛ لأنّها إنّما تستخدم اللغة كوسيلة فقط لتعيد بناء ما يكمن خلف اللغة، مِن مثل: الثقافة، والفكر، والتاريخ... من جهة، وبإساءتها الظن باللغة، لافتراضها عدم إمكانة تطبيق مناهج الإدراك في العلوم الطبيعية عليها بناء على الاعتقاد بعدم إمكانة تكرير العمل الإنساني وأحاديته(80).

وقد انطلق هلمسليف مِن أفكار سوسير تماماً كما فعلت مدرسة براغ. وركّز على مقولة سوسير: إنّ اللغة شكل لا مادّة(81)، وإنّ الوحدات اللغوية ليست شيئاً آخر غير قيمتها داخل نظام العلامات، الّتي تقرّها العلاقات بين الوحدات اللغويّة. وهذه العلاقات هي الّتي لها الأهميّة الكبرى، وليس للوحدات اللغويّة في حدّ ذاتها أيّ قيمة. وسعياً منه إلى إيجاد بنية قياسية في مجال المحتوى أو المضمون. ولتطوير أفكار سوسير جاء هلمسليف بمفهومين جديدين إلى البحث اللساني، يُعدان من أهمّ منجزاته، وهما: مصطلحا: التعبير expression، والمحتوى content، وأسقط على كلّ منهما مصطلحي سوسير:

الشكل " Form " والمادّة " Substance "؛ ممّا أدّى إلى تشكيل أربع طبقات يتعلق بكلّ واحدة منها علم خاص بها، على النحو الآتي :

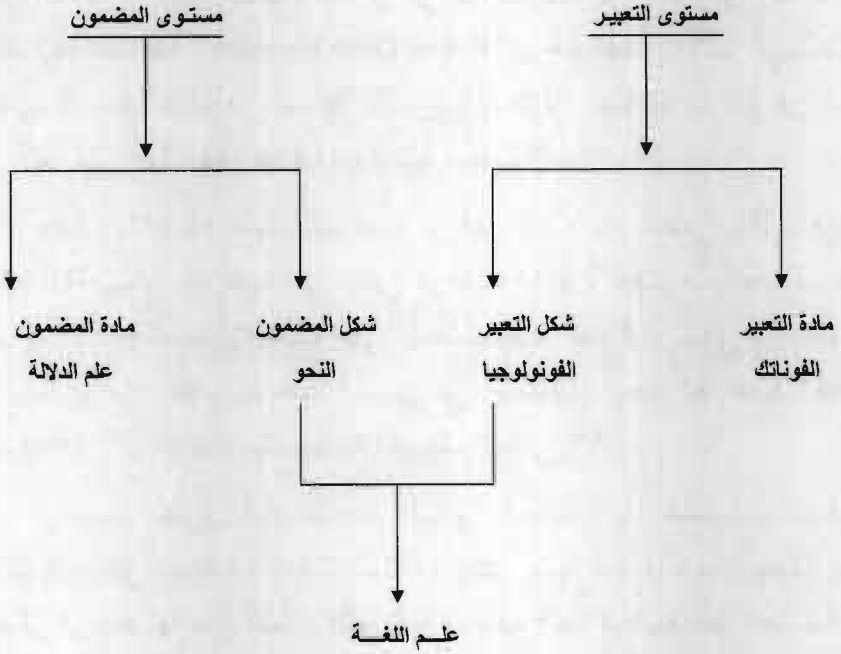

ومادّة التعبير هي الجانب الصوتي الفيزيائي الذي يتماثل في كلّ اللغات. وشكل التعبير هو النظام الصوتي الخاص بلغة معينة. ومادّة المضمون هي الواقع الحيّ الذي هو واحد بالنسبة إلى جميع اللغات. وشكل المضمون هو التصور النفسي لمادّة المضمون؛ أيْ كيف نستقبل ونتصور الواقع الحيّ مِن حولنا من خلال اللغة المعينة[82].

وكما هو ظاهر مِن الرسم أعلاه فإنّه لا ينتمي إلى علم اللغة مِن هذه المستويات الأربعة سوى مستويي الشكل؛ ذلك أنّ اللغة - كما يرى هلمسليف - هي "شكل خاص منظم داخل مادّتين: مادّة المضمون ومادّة التعبير"[83]. ولهذا فقد طالب بألا يبحث علم اللغة إلّا الشكل وحده، منفصلاً عن أيّ مادّة، ومِن ثَمّ فقد أهمل عن عمد كل المعلومات التي تتعلق بمقولة المادة؛ نظراً إلى أنّ

المادة ظاهرة متغيرة؛ فالمظهر الصوتي للغة يتغير باستمرار مِن جيل إلى آخر، وهو إنّما يُعنى بالثوابت الأساسية Ultimate invariants؛ أي الحقائق التي تظل ثابتة ما دامت البنية اللغوية قائمة[84]. وهذا يعني أنّ مهمة اللغوي تقتصر على دراسة شكل التعبير في علاقته بشكل المضمون، ونظراً إلى كثرة استخدام الجلوسيماتيين لمصطلح الشكل على هذا النحو فكثيراً ما كانوا يطلقون على أنفسهم اسم " الشكلانيون " : Formalists [85].

وفي الواقع، لقد تمكن هلمسليف مِن تحقيق درجة عالية مِن التجريد أحالت اللغة عنده إلى ظاهرة باطنية، غير قابلة للتجربة الإدراكية، وهذا ما يفصح عنه وصف هلمسليف لنظريته بأنّها " جبر باطني للغة "[86]، ويتجلى هذا أيضاً في استخدامه للتجريدات، في دراسته للغة؛ فقد حدّدت كلّ وحدة مِن وحدات اللغة عنده برموز عرفية؛ فكلّ حركة "vowel" يرمز إليها بالرمز "V"، وكلّ علاقة "Relation" يرمز إليها بالرمز "R"، وكلّ جملة يرمز إليها بالرمز "S"[87]، وهكذا. ومِن هنا فقد طالب هلمسليف بتحويل علم اللّغة إلى علم رياضيّ، وضرورة وضعه في موضعه الصحيح في نظريّة عامّة للعلامات[88]. وولع الجلوسيماتيين بالتجريد على هذا النحو هو الذي جعل غيرهم ينتقدونهم، ويتّهمونهم بحبهم المفرط للتجريد والشكلانية[89] إلى الحدّ الذي جعل أخمانوفا Achmanova ينتقد عمل هلمسليف بحدّة، واصفاً إياه بأنّه "تحرير علمي للغة مِن اللغة "[90].

ويتّضح لنا تماماً ممّا تقدّم أنّنا أمام توجّهين لسانيين على طرفي نقيض: توجه استقرائي مادّي، ينطلق من اللغة المحسوسة؛ أي الكلام، ويمثّله بلومفيلد وأتباعه، وتوجّه استدلالي تجريدي رياضي يمثله هلمسليف وأنصاره، فماذا عن مواقف مدرسة براغ؟

لقد اتخذت براغ موقفاً وسطاً؛ بين بين، فجمعت بذلك بين التوجهين، بين المادّي والتجريدي. فكما قدمنا تبنى البراغيون الاتجاه الوظيفي، ولم يكن اختيارهم لهذا الاتجاه اعتباطاً، وإنّما كان النتيجة الطبيعية لإيمانهم الراسخ بأنّ اللغة - بوصفها نظاماً - إنّما تستخدم وسيلة مِن وسائل الاجتماع، وأداة ذات

غرض محدد[91]. ومع أنّ أتباع الجلوسيماتية يعلقون أهمية كبيرة على الوظيفة، ويصرّون على وجوب تصنيف العناصر اللغوية على أساسها فقط، فإنّ هناك فرقاً كبيراً بين مفهوم الوظيفة عندهم، ومفهومها عند البراغيين؛ فالوظيفة عند أتباع الجلوسيماتية - مثلما هي في الرياضيّات والمنطق - تعني التبعية، أي العلاقة أو صلة، وقد حدّدت هذه العلاقة بأنّها علاقة نحوية؛ علاقة بين الدالات[92]، فهي - إذن - تبعية داخلية بنيوية محضة، ورياضية إلى حدّ كبير، وفي ضوء هذا الفهم للوظيفة عندهم ينظر إلى البنية على أنّها شبكة أوجه التبعية، أو شبكة من الوظائف. وشبكة الوظائف هذه هي الموضوع الحقيقي للبحث العلمي[93]. وهذا يعني قطعاً لأي صلة للغة بالواقع المادي.

أما الوظيفة في المفهوم البراغي فتعني الاستعمال، أو الاستخدام، أو تحديد العلاقة بالشيء الموصوف[94]؛ نظراً إلى أنّ اللغة عندهم - كما قدمنا - "نظام من وسائل التعبير المناسبة لهدف ما". فاللغة لا يمكن لها أنْ تكون إلا أداة تعبير حين يوجد موضوع للتعبير، ولما كان الإنسان وحده هو الموجود فإنه ينبغي للغة أنْ يعاد ربطها بالشخص المتكلم[95]، فاللغة التي هي في حقيقتها كلام إنساني - ترتبط - بوصفها جوهراً تاريخياً واجتماعياً - بالإنسان طيلة حياته. وعليه، فإنّ الوظيفة في عُرف البراغيين تعني - بكلّ وضوح - ربط اللغة بالواقع المادي والإنسان المتواصل، فهي دائماً على ارتباط وثيق بالواقع غير اللغوي، وبهذا يقترب البراغيون مِن بلومفيلد وأساتذته مِن النحاة الجدد الوضعيين الذين كانوا يؤمنون بأنّ اللغة ليس لها وجود بعيداً عن المتكلمين[96]. ومنذ الخمسينيات مِن القرن الماضي أكّد ترنكا أنّ أهم موضوع في علم اللغة هو العلاقات الّتي تربط بين العناصر في نظام اللغة، كما أكّد أيضاً الصلة الوثيقة للغة بالواقع، وأنّ الواقع غير اللغوي ذو ارتباط دائم باللغة، إذْ لا يكون لوجود اللغة دونه أيّ مسوغ على الإطلاق[97]، فلا استقلال إذن للغة عن الواقع المادي؛ ذلك أنّها إنّما تدرك بوصفها وسيلة لمعرفة هذا الواقع، بحيث لا يتصور وجودها بمعزل عنه.

إنّ اللغة عند مدرسة براغ شكل وفاقاً لسوسير والجلوسيماتيين، وخلافاً لبلومفيلد، ولكنّها مِن جهة أخرى هي - عندهم - شكل داخل المادّة، أو هي

مادّة مشكّلة، فيكونون بذلك قد قطعوا تقريباً نصف المسافة التي تفصلهم عن توجّه بلومفيلد، وابتعدوا بالقدر نفسه عن توجّه سوسير والجلوسيماتيين الذين عدّوا اللغة شكلاً خالصاً دون مادّة[98]؛ ما يعني قطعاً تاماً لأيّ صلة للغة بالواقع المادّي. وعليه، فإنّ البراغيين بموقفهم الوسطي هذا قد جمعوا بين المتناقضين؛ بين بلومفيلد والجلوسيماتيين؛ أيْ بين المادّي والتجريدي، بحيث يمكن معه أنْ نطلق عليهم - إنْ جاز لنا التعبير - اسم البلوسليفيّين Blo-Slevians.

ثالثاً - الأهداف اللّسانيّة

بالنسبة إلى اللسانيات الوصفيّة البلومفيلديّة لم يكن هدف الدراسة اللسانيّة سوى تطوير مناهج للوصف اللساني، ولم يكن وضع نظريّة أو نظريّات مِن اهتماماتها، ويرجع ذلك إلى التقليد الّذي أرساه فرانس بواس؛ أوّل مَنْ جعل الوصف الآني في أمريكا غاية الاهتمام الأساسيّة، مِن خلال دراساته الوصفيّة للغات الهنود الحمر، ألا وهو التنوّع اللا نهائي للغات الإنسانيّة، ممّا يتعذّر معه وضع نظريّة عامّة[99]. وأمّا الجلوسيماتيّة فقد اهتمّت - على العكس مِن ذلك تماماً- بتطوير نظريّة لغويّة، بل نظريّة في العلم، ولم تهتمّ بوضع مناهج. وجاءت مدرسة براغ فجمعت بين التوجّهين السابقين؛ فقد وضعت نُصب أعينها وضع نظريّة عامّة في اللغة، إلى جانب وضع المناهج.[100]

رابعاً - الموقف من الفونيم

الفونيم هبة مدرسة قازان. فلقطبي هذه المدرسة السلافية، العالمين البارزين: جان بدوين دي كورتني Jan Badouin de Courtenay (1845-1929م)، وصديقه وتلميذه الموهوب: ميكولاي كروز تسيفسكي Mikolaj Kruszewski (1851-1887م) - يعود الفضل الأكبر في اكتشاف الفونيم. وقد كانت أفكارهما باعثاً قوياً على نشأة النظريات الثورية عند كلّ مِن سوسير، ومدرسة براغ[101]. وثمة شواهد تثبت أنّ سوسير كان قد تحدّث إلى تلاميذه عمّا تمتاز به أفكار هذين الرجلين مِن أهمية وأصالة، مؤكّداً في الوقت نفسه أنّ اللسانيات الغربية قد خسرت كثيراً لعدم اطّلاعها إلا على النزر اليسير مِن عملهما[102].

لقد بدأ في هذه المدرسة تطوير أول مفهوم حديث للفونيم، وقد تمّ ذلك في الواقع على يد كورتيني، الذي يعدّ أبا نظرية الفونيم، بوصفه المكتشف الأول لطبيعته اللغوية، وقد تحقّق له ذلك على وجه التحديد عام 1870م، وذلك في محاضرته الافتتاحية في جامعة بطرسبورغ[103]، ثم قام تلميذه كروز تشيفسكس بمتابعة جهود أستاذه، وعمل على تطوير هذه الفكرة، مؤكّداً بالأدلّة أنّ الفونيم وحدة صوتية ذات وظيفة خاصة في عملية التواصل[104]، كما أنّه هو الذي ابتكر مصطلح الفونيم "Phoneme" عام 1879م[105].

وقد نُظر إلى الفونيم في الفونولوجيا التقليدية على أنّه الوحدة الصغرى في التحليل اللغوي، وبعبارة أخرى هو الأساس أو المنطلق في التحليل، وأنّه وحدة مصمتة، غير قابلة للتجزئة، يشبه تماماً النقطة في كونه غير قابل للانقسام بأيّ وجه مِن الوجوه[106]. والنظر إلى الفونيم على هذا النحو يرجع - في الواقع - إلى تصوّر سوسير للدّال بأنه ذو طبيعة خطيّة؛ لأنّه " لمّا كان الدّال ذا طبيعة سمعية فإنّه يجري في الزمن وحده، وله من ثَمّ خصائص الزمن:

1 - فهو يمثّل امتداداً.

2 - ويمكن أنْ نقيس هذا الامتداد مِن حيث بُعد واحد هو الخطّ "[107]؛ أي تأتي عناصره الواحد تلو الآخر مكوّنة بذلك سلسلة. إنّ تسليم سوسير بالطبيعة الخطيّة للدّال جعل مِن غير الممكن وجود أيّ احتمال لعدّ الفونيم حزمة من الصفات المميزة[108]. قال بهذا الخصوص: "ولا يبدو هذا الأمر بصورة بديهية في بعض الحالات، مِن ذلك أنّك إذا نبرت مقطعاً مثلاً فإنّه يُخيّل إليك أنّك كدّست في النقطة نفسها عناصر معنوية مختلفة. وما ذلك إلّا وَهْم؛ فالمقطع ونبرته لا يمثلان سوى عملية تصويتية واحدة، وليس في صلب هذه العملية ثنائية بل كلّ ما فيها تقابلات متنوعة بينها وبين ما يحاذيها في سلسلة الكلام "[109].

وقد تفاوتت مواقف اللغويين بشأن الفونيم، فكانوا مِن ثَمّ بين مؤيّد متحمّس، ومنكر متشدّد. أمّا المؤيّدون فقد وجدوا في اكتشافه واحداً مِن أهم الإنجازات العلمية، حتى ليعادل في أهميته - عندهم - اكتشاف الطاقة النووية؛

نظراً إلى أنّ اكتشافه أدى إلى ثورة في التفكير اللغوي تشبه إلى حد بعيد تلك التي أدّى إليها اكتشاف الطاقة النووية في العلوم التقنية[110].

وفي مقابل المؤيدين يقف ج. فيرث J. Firth زعيم مدرسة لندن اللغوية في مقدمة المنكرين، متزعماً جبهة الرفض لمفهوم الفونيم قائلاً: "لم نجد أبداً أي وحدة أو جزء يمكن أنْ يسمى فونيماً"[111].

وأما مدرسة براغ فخلافاً لمدرسة لندن اتفقت مع سوسير والفونولوجيا الأمريكية التقليدية في إعطاء الفونيم دوراً مركزياً في التحليل اللغوي، كما أنّها اعتمدت على مفاهيم سوسير وتعاليمه في تطوير هذا المفهوم، فقد شكّلت ثنائية سوسير: اللغة/ الكلام، الأساس الحقيقي للفونولوجيا عند براغ؛ فنسبة الفونولوجيا إلى الفوناتك هي كنسبة اللغة إلى الكلام، بل هي صدى لها، ومستمدة منها، هكذا:

$$\frac{\text{الفونولوجيا}}{\text{الفوناتك}} = \frac{\text{اللغة}^{(112)}}{\text{الكلام}}$$

ولكنّها خالفت سوسير والفونولوجيا التقليدية عموماً بشأن طبيعة الفونيم، حيث عدّته وحدة مركّبة، أو وحدة ثانوية قابلة للتحليل إلى وحدات أولية أكثر أساسية، وأكثر بساطة وصغراً، تسمى الملامح التمييزية: "distinctive features"[113]، وينظر إلى الفونيم - بناء على ذلك - على أنه حُزمة مِن الملامح أو السمات المميزة التي ترد متزامنة[114].

وهذا التصوّر للفونيم الذي ينسب إلى مدرسة براغ هو في الواقع مِن عمل رومان جاكوبسون الذي حظي وحده دون سواه بشرف تطوير هذه النظرية، وقد تحقّق له ذلك على وجه التحديد عام 1938م[115]. وتتسم نظرية الملامح التمييزية هذه بسمتين ثنتين، هما:

1 - العالمية.

2 - الثنائية.

أمّا **سمة العالمية** فقد توصل إليها جاكوبسون مِن خلال ملاحظته أنّه ليس كلّ

تقابل صوتي يكون وظيفياً، أيْ تقابلاً فارقاً، وإنّما هناك تقابلات صوتية محددة للغاية لديها فقط فرصة أداء وظيفة تمييزية في أيّ لغة، وهذا يعني أن هناك نظاماً سارياً عالمياً للسمات الصوتية، تستنبط منه وحده كل لغات العالم إمكاناتها التمييزية[116]. وعليه فإنّ مختلف البُنى الفونولوجية الموجودة في لغات العالم ما هي إلّا مجرد تنوعات سطحية لنظام تحتي عام ثابت[117]. وبهذا يكون جاكوبسون قد قوّض دعائم النسبية السوسيرية - الأمريكية بالنسبة إلى الفونولجيا[118].

وأمّا **سمة الثنائية** فقد انطلق فيها جاكوبسون مِن مُسَلَّمة لديه تقول: إنّه لا شيء البتة يكون وثيق الصلة فونولوجياً إلّا وجود سمة ما أو غيابها[119]. وعليه، فإنّ كلّ صوت يختلف - بوصفه حُزمة مّن الملامح مركّبة فيه على نحو فريد - عن كل الأصوات الأخرى بوجود ملمح ما على الأقلّ، أو غيابه.

وبعد انتقاله إلى أمريكا قام جاكوبسون - بالاشتراك مع علماء يعملون في أجهزة التحليل الطيفي - بتحليل المميّزات الأصلية لفونيمات اللغات كلّها، وتوصّل إلى مجموعة صغيرة مكوّنة مِن اثني عشر تقابلاً ثنائياً مِن الملامح الأكوستكية تمثّل معيناً عالمياً مِن الملامح، حدّدت على أساس توزيع الطاقة في المكوّنات الموجية (formants) في موجاتها الصوتية، وليس على أساس أيّ علاقة متعلقة بنطقها[120]. ومِن خلال هذه القائمة المحدودة، ومِن خلال مفاهيمها يكون مِن الممكن وصف فونيمات كلّ لغة. وقد صنفت هذه الملامح بناء على نوعين مِن السمات على النحو الآتي:[121]

أولاً - السمات الصوتية، وقد حظيت بثلاثة أرباع المجموع الكلي لعدد الملامح التمييزية؛ أي بتسعة تقابلات ثنائية، هي:

1 - vocalic حركي / nonvocalic غير حركي

2 - consonantal صامتي / nonconsonantal غير صامتي

3 - compact متضام / diffuse منتشـر

4 - tens شديد / lax رخو

5 - voiced مجهور / voiceless مهموس

6 - nasal أنفي / oral فموي

7 - Interrupted غير ممتد / continuant ممتد

8 - Checked مغلق / unchecked غير مغلق

9 - strident خشن / mellow ناعم

ثانياً - السمات الموسيقية (النغمية)، ولها الربع الباقي، أي ثلاثة تقابلات فقط، وهي:

1- - acute حاد / grave رزين

2 - flat منخفض / plain غير منخفض

3 - sharp مستعلٍ / plain غير مستعل

وواضح تماماً أنّ بعض المصطلحات الفنية لهذه التقابلات الثنائية قائم على نحو غير ثابت على علم الأصوات الأكوستكي، مثل: المتضامّ (الفتحة a)، والمنتشر: (الكسرة والضمّة i,u)، وبعضها قائم على علم الأصوات النطقي، مثل: الأنفي والفموي، وبعضها قائم على أساس موسيقي، مثل، منخفض وغير منخفض، وبعضها الآخر قائم على انطباعات عامّة، مثل: الخشن والناعم.(122)

نتائج البحث

1 - إنّ مبدأ النسبيّة الّذي تتّسم به المفاهيم اللسانيّة جعلها محلّ نظر وتطوّر مستمرّين، والترجمة العمليّة للتطوّر تتمثّل في المدارس اللسانيّة الّتي تعدّ محطّات، ومعالم فكريّة بارزة في مسيرة اللسانيّات، ينسل بعضها من بعض، ويكمل بعضها بعضاً.

2 - إنّ ربط مدرسة براغ للغة بالواقع، والأفراد الّذين يتكلّمونها، أضفى عليها سمة الواقعيّة؛ إذ اللغة ليست غاية في حدّ ذاتها، وإنّما هي وسيلة للتواصل، ولتحقيق أغراض اجتماعيّة محدّدة، وعليه فاللغة لا توجد إلّا مِن خلال الإنسان، ومِن أجل الإنسان، وفي الإنسان.

3 - إنّ الوسطيّة أو المذهب التوفيقي الّذي اتّسمت به مواقف مدرسة براغ أكسب

طروحاتها، وأفكارها أهميّة ومصداقيّة كبيرة؛ إذ الطريقة التوفيقيّة بين المذاهب هي التي تكفل النجاح والاستمرارية للأفكار ووجهات النظر، خلافاً للآراء الفرديّة المتّسمة بالحدّة والصرامة الّتي سرعان ما تجعل مِن نفسها هدفاً لسهام النقد والطعن، فتحمل بذلك في داخلها مِعول هدمها، ولهذا نادى صامويل تايلور بضرورة تبنّي المواقف التوفيقيّة في الدراسة العلميّة، قائلاً: "يجب أنْ ندرس كلّ شيء في ذاته قدر الإمكان، وأنْ ندرسه كذلك مِن حيث علاقاته. فإذا حاولنا النظر إليه في ذاته مطلقاً، وبقطع النظر عن علاقاته، فإنّنا سنجد أنفسنا شيئاً فشيئاً قد استنفدناه فهماً ودراسة. وإذا حاولنا النظر إليه من خلال علاقاته فقط، فسنكتشف أنّه لا توجد زاوية في هذا الكون إلّا وقد احتلّ مكانه منها". (123)

الهوامـــش والمراجع

(1) مونين، جورج: **تطوّر علم اللغة منذ نشأتها حتّى القرن العشرين**، ترجمة: بدر الدين القاسم، دمشق: وزارة التعليم العالي، 1972م، ص211.

(2) هلبش، جرهارد: **تطوّر علم اللغة منذ 1970م**، ترجمة: سعيد حسن بحيري، القاهرة: مكتبة زهراء الشرق، 2007م، ص33. وانظر أيضاً: مان، فولجانج هاينة، **مدخل إلى علم لغة النصّ**، ترجمة: سعيد حسن بحيري، القاهرة: مكتبة زهراء الشرق، 2004م، ص15.

(3) بارتشت، بريجيته: **مناهج علم اللغة من هرمان باول إلى ناعوم تشومسكي**، ترجمة: سعيد حسن بحيري، القاهرة: مؤسّسة المختار للنّشر والتزيع،، 2004م، ص115، وانظر: جاكوبسون، رومان: **الاتجاهات الأساسية في علم اللغة**، ترجمة: علي حاكم صالح وحسن ناظم، الدار البيضاء، وبيروت: المركز الثقافي العربي، 2002م، ص19، ، وانظر أيضاً:

- Sampson,Geoffrey, **Schools of Linguistics**,Hutchinson& co.Ltd.London,1985, p 130.

(4) إيفيتش، ميلكا: **اتجاهات البحث اللساني**، ترجمة: سعد مصلوح، ووفاء كامل، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ط، 2000 2م، ص 247.

(5) إيلوار، رونالد: **مدخل إلى اللسانيات**. ترجمة: بدر الدين القاسم، دمشق: وزارة التعليم العالي - 1980 م، ص92.

(6) مونين، جورج: **علم اللغة في القرن العشرين**، ترجمة: نجيب غزاوي، دمشق: وزارة التعليم العالي، 1982م. ، ص 147.

(7) هلبش، جرهارد: **تاريخ علم اللغة الحديث**، ترجمة: سعيد حسن بحيري، القاهرة: مكتبة زهراء الشرق، 2003م، ص 93.

المجلة العربية للعلوم الإنسانية العدد 30/119

(8) مناهج علم اللغة ص116.

(9) هيشن، كلاوس: **القضايا الأساسية في علم اللغة**، ترجمة: سعيد حسن بحيري، القاهرة: مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، 2003م، ص 52.

(10) تاريخ علم اللغة الحديث، ص 93.

(11) إبراهيم، زكريا، **مشكلة البنية**، القاهرة: مكتبة مصر، د.ت، ص48.

(12) - Hill. Archibald, **Linguistics today.** New York, Basic book Inc., 1969 -12 - P. 238

(13) تاريخ علم اللغة الحديث، ص 93.

(14) اتجاهات البحث اللساني، ص 248.

(15) اتجاهات البحث اللساني، ص 167.

(16) - **Ecyclopedia Britannica**, William Benton Publisher, 1971-16 - Vol. 23. P. 63

(17) ليونز، جون: **اللغة وعلم اللغة**، ترجمة وتعليق: مصطفى التوني،، القاهرة: دار النهضة العربية، والدار العربية، 1987م، 2/ 62.

(18) مناهج علم اللغة، ص118.

(19) - Lyons, John. **New Horizons in Linguistics**, England, Penguin Books, 1975, p.315

(20) - Bynon, Theodora, **Historical Linguistics**, Cambridge, 1985, P. 19

وانظر: تاريخ علم اللغة منذ نشأتها حتى القرن العشرين، 1972م، ص217، وغازي، يوسف: **مدخل إلى الألسنية**، دمشق: منشورات العالم العربي الجامعيّة، 1985م، ص 26.

(21) اللغة وعلم اللغة 2/ 52.

(22) روبنز، ر، هـ: **موجز تاريخ علم اللغة**، ترجمة: أحمد عوض، الكويت: عالم المعرفة، دار القسطل للنشر والتوزيع، 1997م، ص 176.

(23) فر كلير، جوناثان: **فردينان دو سوسير، تأصيل علم اللغة الحديث وعلم العلامات**، ترجمة: محمود حمدي عبد الغني، ومراجعة محمود فهمي حجازي، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ،2000م، ص 24. وانظر: اتجاهات البحث اللساني، ص 212.

(24) سوسير، فردينان: **دروس في الألسنية العامة**، ترجمة: صالح القرمادي ومحمد الشاوش ومحمد عجينة، طرابلس: الدار العربيّة للكتاب، 1985م، ص 23.

(25) دروس في الألسنية العامة، ص 22.

(26) دروس في الألسنية العامة، ص 129.

(27) دروس في الألسنية العامة، ص 127.

(28) دروس في الألسنية العامة، ص 152.

(29) دروس في الألسنية العامة، ص 127.

(30) دروس في الألسنية العامة، ص 130.

(31) دروس في الألسنية العامة، ص 149.

(32) دروس في الألسنية العامة، ص 148.

(33) المسدي، عبد السلام: **اللسانيات وأسسها المعرفية**، تونس: الدار التونسية للنشر، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986م، ص120.

(34) دروس في الألسنية العامة، ص128.

(35) دروس في الألسنية العامة، ص 136.

(36) دروس في الألسنية العامة، ص 140.

(37) دروس في الألسنية العامة، ص 129.

(38) اتجاهات البحث اللساني، ص 249.

(39) اتجاهات البحث اللساني، في المكان نفسه.

(40) دروس في الألسنية العامة، ص 28.

(41) - Leroy, Maurice, **Main trends in linguistics**, translated by Glanville price, University of California press, California, 1967, p 90

(42) اتجاهات البحث اللساني ص249.

(43) جاكوبسن، رومان: **أفكار وآراء حول اللسانيات والأدب**، ترجمة: فالح صدام الأمارة، وعبدالجبار محمد علي، مراجعة: مرتضى باقر، بغداد: دار الشؤون الثقافية، 1990م، ص 64

(44) أفكار وآراء حول اللسانيات والأدب، ص 65.

(45) فردينان دو سوسير: تأصيل علم اللّغة، ص100.

(46) تاريخ علم اللغة في القرن العشرين، ص 149.

(47) تاريخ علم اللغة في القرن العشرين، ص 148.

(48) باي، ماريو: **أسس علم اللغة**، ترجمة: أحمد مختار عمر، القاهرة: عالم الكتب، ط8، 1998م، ص 137.

(49) المرجع السابق، ص 138.

(50) - Main trends, P. 70

(51) - Ibid

(52) - Ibid, P. 89

(53) غابوتشيان، غراتشيا: **نظرية أدوات التعريف والتنكير**، ترجمة: جعفر دكّ الباب، دمشق: وزارة التعليم العالي، 1980م، ص 99.

(54) - Main trends, P. 90

(55) الشايب، فوزي: **محاضرات في اللسانيات**، عمّان: وزارة الثقافة، 1999م، ص 341. وقد حقّق هذا الكتاب للمدرسة الأمريكية ماحققه كتاب تروبتسكوي " **مبادئ الفونولوجيا** "

لمدرسة براغ، وما حققه كتاب هلمسليف " **مقدمات إلى نظرية اللغة** " لمدرسة كوبنهاجن. انظر: تاريخ علم اللغة الحديث، ص 119.

(56) موجز تاريخ علم اللغة، ص 335.

(57) - Britannica Encyclopedia. Vol.14 p. 69

(58) تاريخ علم اللغة الحديث، ص 123.

(59) تاريخ علم اللغة الحديث، ص 120.

(60) - Schools of Linguistic. P. 335, 343 -

(61) اتجاهات البحث اللساني، ص 277.

(62) - h > Lyons, John, **Semantics** Cambridge University Preess, Cambredge, 1977,-62, Vol.1 p. 125

(63) اتجاهات البحث اللساني، ص279.

(64) موجز تاريخ علم اللغة، ص 341، وانظر: تاريخ علم اللغة الحديث، ص 112.

(65) موجز تاريخ علم اللغة، ص 112، وانظر :محاضرات في اللسانيات، ص 344.

(66) محاضرات في اللسانيات، ص 343.

(67) - Bloomfield, Leonard. **Language** London, 12th impression, George Allen and Unwin. Ltd., 1972, p. 33

(68) محاضرات في اللسانيات، ص 344.

(69) محاضرات في اللسانيات، في المكان نفسه.

(70) - Bloomfield. Language. P. 142

(71) صاغ هلمسليف مصطلح " glossematics " - بعد عام 1936م - من الكلمة اليونانية "glossa" وتعني: "لغة"؛ لتكون اسماً لمدخل جديد في دراسة اللغة، ورغبة منه في تمييز اتجاهه اللساني عن كل التيارات التي كانت سائدة آنذاك، وليؤكد من جهة أخرى عدم التبعية الأساسية للمادة غير اللغوية. انظر: تاريخ علم اللغة الحديث، ص 110، والقضايا الأساسية في علم اللغة الحديث، ص 91.

(72) القضايا الأساسية في علم اللغة، ص 90.

(73) مناهج علم اللغة، ص 171.

(74) اتجاهات البحث اللساني، ص 196.

(75) اتجاهات البحث اللساني، ص 346.

(76) تاريخ علم اللغة الحديث، ص 115.

(77) اتجاهات البحث اللساني، ص 325.

(78) اتجاهات البحث اللساني، ص 323.

(79) بسبب من قصور اللغة الإنسانية عن القيام بدور اللغة الواقعية للعلم؛ لافتقارها إلى المنطقية الصارمة، اتجه علماء الرياضيات والمنطق إلى العمل على إيجاد لغة عليا: Meta Language، لغة مجردة ومنطقية إلى أقصى حد لاستخدامها في أغراض التعريف العلمي. انظر: اتجاهات البحث اللساني، ص 343.

(80) القضايا الأساسية في علم اللغة، ص 91، 92.

(81) دروس في الألسنية العامة، ص 174، 185.

(82) اتجاهات البحث اللساني، ص 326، 327؛ وانظر: تاريخ علم اللغة الحديث، ص 107، 108، والقضايا الأساسية في علم اللغة الحديث، ص 96، 97.

(83) تاريخ علم اللغة الحديث، ص 108.

(84) اتجاهات البحث اللساني، ص 330.

(85) اتجاهات البحث اللساني، ص 328.

(86) تاريخ علم اللغة الحديث، ص 117.

(87) اتجاهات البحث اللساني، ص 332.

(88) مناهج علم اللغة، ص 196.

(89) مناهج علم اللغة، ص 336.

(90) تاريخ علم اللغة الحديث، ص 117.

(91) تمّام حسّان، **مناهج البحث في اللغة**، الدار البيضاء: دار الثقافة، ط2، 1974م، ص 29.

(92) تاريخ علم اللغة الحديث، ص 112.

(93) تاريخ علم اللغة الحديث، ص 111.

(94) تاريخ علم اللغة الحديث، ص 112.

(95) القضايا الأساسية في علم اللغة الحديث، ص 63.

(96) موجز تاريخ علم اللغة، ص 305.

(97) تاريخ علم اللغة الحديث، ص 95.

(98) تاريخ علم اللغة الحديث، ص 109.

(99) القضايا الأساسية في علم اللغة ص 111، ومناهج علم اللغة ص 253.

(100) مناهج علم اللغة ص 253-254.

(101) اتجاهات البحث اللساني، ص 159، 161.

(102) اتجاهات البحث اللساني، ص 212.

(103) علم اللغة في القرن العشرين، ص 30؛ وانظر: محاضرات في اللسانيات، ص 105.

(104) اتجاهات البحث اللساني، ص 231.

(105) - Jones, Danial. **The phoneme it's nature and use**, Cambridge University press, Cambridge, 1978. footnote. 5. p. 10

(106) دروس في الألسنية العامة، ص 72.

(107) دروس في الألسنية العامة، ص 114.

(108) أفكار وآراء في اللسانيات والأدب، ص 66، وانظر: محاضرات في اللسانيات، ص 114.

(109) دروس في الألسنية العامة، ص 115.

(110) أحمد مختار عمر: **دراسة الصوت اللغوي**، القاهرة: عالم الكتب، 1976م، ص 139، وانظر: محاضرات في اللسانيات، ص 111.

(111) - Firth. J. R. **Papers in Linguistics** , London, Oxford, university university press 1969, p.25.

(112) - Main trends, P. 65.

(113) محاضرات في اللسانيات، ص 115.

(114) جاكوبسون، رومان: **ست محاضرات في الصوت والمعنى**، ترجمة: حسن ناظم، وعلي حاكم، بيروت: المركز الثقافي العربي، 1994م، ص 115، 118.

(115) ست محاضرات في الصوت والمعنى، ص 21.

(116) القضايا الأساسية في علم اللغة الحديث، ص 61.

(117) - Schools of linguistics p, 131.

(118) - bid, P.. 121.

(119) القضايا الأساسية في علم اللغة، ص 61.

(120) موجز تاريخ علم اللغة، ص 328، 329.

(121) مدخل إلى اللسانيات، ص 99. وانظر: Britannica. vol 14. p72 Encyclopedia

(122) - Britannica. vol 14. p72 Encyclopedia.

(123) براون، ويول: **تحليل الخطاب**، ترجمة: محمد لطفي الزليطني، ومنير التريكي، الرياض: جامعة الملك سعود، 1997م، ص: ك.

* * *